الصديقتان

قصة جديدة

بقلم عبد الملك نوري

كان لديها شعور مشترك بالراحة والدفء . ولم ينقصها شيء . لقد انتهتا من الطعام قبل قليل وجثمتا الى جانب بعضهما في شمس الظهيرة الدافئة واخذتا تحلمان احلام النهار وتتنسمان بهدوء انفاس الربيع المقبل تهب عليهما من الحقول القريبة .

كان بعض الاطفال بثيابهم الملونة يثيرون ضجة على السدة . والرجال والنساء في حركة مستمرة . وكانت اصوات تنبعث من الاكواخ والبساتين المشتبكة وراءها . وضجيج مثل ضجيج العيد يرتفع في الفضاء — ضجيج فقير بالمرح والسرور تسوده خيبة امل كالتي تسود اعياد الفقراء في كل مكان . ولكن لم يكن شيء من ذلك ليضير الصديقتين او ينتزعهما من حلمهما الدافيء المنساب الى شواطيء مجهولة . كان الشعور بالامتلاء يغمر نفسيهما . وكانتا تنظران الى بعضهما احياناً والى دوامات النهر الذي اضحى بلون الطين وارتفع حتى لامس حوافي الشاطيء . او تصغيان برهة الى ضجيج الاطفال وهدير النهر الثائر واصوات القاطنين في الاكواخ التي تسرب اليها الماء وغمر قاعها . ولكن لم يكن شيء من ذلك ليخرجهما من عالمهما المنعزل القصي . كانتا في مأمن من كل شيء .. تنعمان بدفء الشمس والشعور اللذيذ بانهما قريبتان من بعضهما كل ذلك القرب .. وتلوكان تحت النخيل السامق احلام نهار جميل عابق بانفاس الربيع المقبل .

في الليل كان هدير النهر الثائر يملأ الفضاء . ويطل عليهما — على السقيفة وعلى العائلة باجمعها — قمر شاحب يتسلل بين الغيوم . والريح تصفر اغنية حزينة في رؤوس الاشجار . وتحت رذاذ الظلام الرمادي كانت تتحرك اشباح ومخاوف غريبة انتزعت منهما دفء النهار وبقايا الاحلام المشعشعة اللذيذة . فالتصقت الصديقتان ببعضهما تنشدان الدفء واخذتا تتأملان بصمت حزين وترسلان انفاسهما الهادئة عبر الظلام .

وكانت حركة صاخبة عند الفجر . اشباح تضطرب هنا وهناك . والفانوس يتألق في يد احدهم . وقطرات كبيرة ثقيلة من المطر تنزل على ظهريهما . واصوات الهلع والفزع في كل سقيفة . والهدير الجبار وانين الريح المعولة في رؤوس الاشجار . كانت السماء قطعة واحدة سوداء . وكان وجه رب البيت يلتمع في ضوء الفانوس الأسخم ، يأمر العيال بالرحيل . وتشتد الحركة الصاخبة ويخرج الحمار اولاً متهادياً محملاً بالمتاع وتتبعه الاسرة جميعها .. وتخوض الصديقتان في الماء عندما تعبران الى العراء . ماء ثقيل ينزل من السماء . وماء تمجه الارض النشوى بالهدير المجنون . وتغرق الاكواخ . وتبقى منها هياكل من القصب والحصير وجلاميد الطين المنهار . اشباه منازل . اشباه زرائب فارغة تعصف بها الريح . وتسير الصديقتان خافضتي الرأس .. تتبعان الاسرة المشردة نحو ارض قد تكون بعد كل ذلك العناء صلبة ثابتة في منجى من الفيضان .

لغط كثير في العراء . وحركة لا تكاد تستقر . والشمس تنشر نسيجاً هزيلاً يتهافت على المتاع المبعثر فوق الارض . تراث رخيص لحيوات كثيرة رخيصة . وماض مدلهم يبدأ انطلاقه بجهاد شاق وينتهي افقه عند هلال من خبز فطير . وموت في الحياة بطيء وموجة من البرد الطاغي ترعش جلد الارض .

عند الظهيرة همد الضجيج وتفرق الافراد جماعات صغيرة — نقطاً ضئيلة مبلولة لاصقة بالارض . وبقيت الصديقتان وحدهما تحت نخلة مستوحدة عجفاء تطل عبر الدهور بثبات غريب . دائرة صغيرة من الارض هي كل ملكهما الآن . ولم يعد اهلوهما يملكون شيئاً . كانوا على مقربة منهما يلغطون ويتشاجرون . وكان صوت رب الاسرة يدوي في العراء . وسعف النخلة يرسل حفيفاً متقطعاً وانياً يثير النعاس والاحلام الحزينة والذكر البائرة . وكان صوت رب الاسرة يدوي في العراء . وكان يبصق على الارض بحنق .

« لا ، لن اتنازل عن هذه الجبلية الحمراء .

انها تدر سطلين من الحليب كل يوم .

وحتى السوداء .. آه لو لم اكن في ضيق لما بعتها .

خذها خذها انها كريمة الاصل كأختها الجبلية .

خذها انها فلذة مني . انها جزء من حياتي .

خمس سنين عشت معها ، آه طفلتاي . وهما صديقتان صديقتان .

لا تكادان لحظة تفترقان . كل يوم معا .. كل يوم منذ خمس سنين .

ويلي عليهما . بل ويلي على نفسي . ماذا اكون بعدهما ؟

اوه خذها خذها. خذ السوداء قبل ان انفجر كالمرأة بالبكاء »

وكانت البقرة السوداء قد اخرجت لسانها الوردي العريض واخذت تلحس به رقبة صديقتها الحمراء ، والحمراء كانت تجتر بالتذاذ هادىء ما التقطته من أعشاب في الصباح . وتتأمل في النسيج الفضي البارد الذي تذره الشمس الباهتة من عليائها . ولعلها كانت تسترجع من ظلمات يافوخها العميق ذكريات جبل شامخ غطي سفحه القديم بالجليد .

كانت السباخ السوداء تحيطها من كل جانب . وذرات الملح تقبس شيئاً من الشعاع الفضي الغارب وتلتمع كالنجوم في اخاديد الطين الثخين . والمساء ينمو دقيقة دقيقة . ويشيع في السباخ هموداً اشبه بالموت وشعوراً كئيباً بالفراغ تخلف عن جلبة نهار لاغب طويل .

لقد ارتفع صوت اشبه بالنواح من وراء الصديقتين . وكان رب الاسرة يشتم العيال وينهال عليهم بضرب شديد . ثم هدأ كل شيء فجأة . وعادت النخلة ترسل اغانيها الشجية في الفضاء . واسترسلت الصديقتان في احلامهما المظلمة الحزينة . وهما تجتران بهدوء ما تناولتاه اثناء النهار من طعام .

لقد جاء احدهم . كان يقترب منهما . شبح قاتم في الضوء الرمادي . وكان هزيلاً ملثماً تلتمع عيناه الصغيرتان بين اطواء اللثام . وامتدت الى العقدة التي تربطهما يد يابسة سمراء طوحت بالحبل باعتداد مقيت وضربت به على ظهر السوداء ضربتين قاسيتين . ولم تكونا تدريان كيف حدث كل ذلك . لقد ارتفع نواح مخنوق من ورائها ، ثم همد . وكان رب الاسرة يبصق على الارض بحنق .

وادركت الحمراء انها وحدها . بقيت وحدها في العراء . وصديقتها السوداء تغيب وراء صاحبها في الافق البعيد — نقطتان مظلمتان تتحركان في الافق البعيد . ولم تعد ترى شيئاً . كان فراغ هائل يملأ نفسها . وداع خمس سنين من الحياة — الحياة التي لن تعود . واشاحت برأسها عن الافق . وارتفع من اعماقها المظلمة ثغاء أليم .. ثغاء طويل حزين اخذ ينتشر في ظلمة الليل فوق السباخ الهامدة السوداء .

كانت النخلة العجفاء وحدها تطل بشبات فوق القفر الجائع الزاخر بالموت البطيء . وترسل اغانيها الشجية عبر الدهور .

بغداد

عبد الملك نوري

الى الأمل الذي لا يموت

•

ذكراك حافلة ، كينبوع على بلدي ، يميدْ
وصداك متصل النبرى ، وخطاك اكبر أن تبيد
في موطني تحيا ، وفي عِرْق المدائن ، والوريد

★

في كل نبض من حياتك ، نابضٌ قلبٌ وليد
وبكل حرف من بيانك ، ذائبٌ حب جديد
فالأرض سيمفونية ... في كل منْطلَق نشيد

★

لفتاتُ وجهك هزَّة ، في الموطن النائي البعيد
ونهوض خطوتك الشديد نهوض إنسان شديد

★

حيث اتجهتَ ، دمٌ يغنّينا ، فيلتفت العبيد ،
ورنين أحرارٍ يهبُّ — تقول : هل سكت الحديد ؟
وجبين طفلٍ ، كالصباح امتد في الحقل المديد .

★

الطيّبون هنا ، أيادٍ ، من عطائك تستزيد
ألهبتَ ، بالأمل الورى ، فبكل ضلع منه عيد

★

لمحبّتي إياك ، أصفيتُ الهوى وطني الشهيد .

حمص

نصوح فاخوري